تفسير تعاطي المخدرات في ضوء نظرية المخالطة الفارقة

د. امباركة أبوالقاسم الذئب •

المستخلص:

لقد تضمن النموذج النظري لهذا البحث تفسيراً لتعاطي المخدرات في ضوء نظرية المخالطة الفارقة، ذلك لأن تعاطي المخدرات سلوك يتم تعلمه عن طريق ارتباط المتعاطي بجماعة متعاطية تربطه بها علاقة أولية مباشرة، وعبر كافة أنواع الاتصال الممكنة، حيث يتعلم من خلالها تقنيات التعاطي، كما يتعلم منها تلك المواقف والاتجاهات والبواعث والتبريرات التي تدفعه باتجاه التعاطي، ويتعلم منها الاتجاهات المؤيدة للتعاطي وانتهاك القانون الذي يدينه ومن ثم ممارسته، لكن يتعلم الفرد من جماعته السوية أيضاً تلك الاتجاهات والمواقف الإيجابية التي تشجعه على احترام القانون، وبالتالي تصرفه عن ممارسة التعاطي. ويصبح الفرد متعاطياً عندما ترجح لديه كافة القوى السالبة أو المشجعة على التعاطي على تلك القوى الإيجابية أو غير المشجعة على ممارسته، وأن المواقف والاتجاهات المعززة للتعاطي السالبة ليست قوى ديناميكية وذات تأثير واحدٍ على جميع المتعاطين وبأسلوب واحد. ذلك لأن الاتجاهات التي تشجع على التعاطي ذات تأثير نسبي، وهو ما يعني أنها تعمل تفاضلياً، أي وفقاً للعوامل التي تحيط بها ولمدى قوة هذه العوامل؛ فتأثير هذه العوامل يتوقف على عامل التكرار، ومدة التكرار، وعمق الاختلاط، وقوته أو قوة تأثيره على الأفراد الذين يتعرضون له، وأن الاختلاط التفاضلي بين الأفراد لا يتضمن انتقال الأنماط السلوكية المتعلقة بالتعاطي فقط، ولكنه يتضمن أيضاً انتقال الأنماط السلوكية التي تشجب التعاطي، وأن تأثير الأنماط السلوكية على الأفراد يختلف بالدرجة الأولى باختلاف مدى تكرر هذه الأنماط ومدة تكرارها، ولذلك فعندما يتعرض الفرد إلى بعض المواقف والظروف بصورة متكررة، ولمدة طويلة نسبياً، فإنه يستجيب لها ويعمل على تقليدها، وأن تأثر الفرد بالأنماط السلوكية يختلف باختلاف أولويتها في حياته، وأخيراً تضمن التصور النظري بعض التوصيات التي تحول دون ارتباط الابناء بالجماعات المتعاطية، وتقديم بعض المقترحات بصدد تفسير بعض الظواهر المنحرفة مثل الغش في الامتحانات والهروب من المدرسة والتنمر والاغتراب في ضوء نظرية المخالطة الفارقة.

الكلمات المفتاحية: تعاطي المخدرات، التجاوز عن تعاطي المخدرات، الانسحاب الاجتماعي، الارتباط التفاضلي.

Abstract:

The theoretical model of this research included an explanation of drug abuse in the light of the differential association theory, because drug abuse is a behavior that is learned through the abuser's association with a group of abusers with which he has a direct primary relationship, and through all possible types of communication, through which he learns the techniques of abuse, as he learns from them those attitudes, trends, motives and justifications that push him towards drug use, and he learns from them the trends that support abuse and the violation of the law that condemns him and then practice it, but the individual learns from his normal group also those positive attitudes that encourage him to respect the law, and thus distract him from the practice of abuse. The individual becomes a drug addict when all the negative or encouraging forces to use outweigh those positive or discouraging forces, and the attitudes and tendencies that promote negative use are not dynamic forces that have the same effect on all users and in one way. This

• أستاذ علم الاجتماع المشارك -الاكاديمية الليبية.

is because the trends that encourage abuse have a relative effect, which means that they act differentially, that is, according to the factors that surround them and the
strength of these factors; the effect of these factors depends on the factor of repetition, the duration of repetition, the depth of mixing, and its strength or strength of influence on the individuals who are exposed to it, and that differential mixing between individuals does not include the transmission of behavioral patterns related to abuse only, but also includes the transmission of behavioral patterns that condemn abuse, and that the effect of behavioral patterns on individuals vary primarily according to the frequency of these patterns and the duration of their recurrence, so when an individual is exposed to some situations and circumstances repeatedly, and for a relatively long period, he responds to them and works to imitate them, and that the individual affected by behavioral patterns varies according to their priority in his life. Finally, the theoretical concept included some recommendations that prevent children from being linked to the abuser groups, and some suggestions were made regarding the interpretation of some deviant phenomena such as cheating in exams, truancy, bullying and alienation in the light of the differential mixing theory.
Keywords: Substance abuse, drug abuse, social withdrawal, differential association

المقدمة:

يلاحظ المهتم بدراسة الظاهرة الإجرامية أن هناك تطوراً كبيراً في تقنيات ممارسة الجرائم بكافة أنواعها، ما دفع الباحثين بصددها إلى الاجتهاد في تفسير العوامل المؤدية إليها. ولقد تنوعت النظريات المفسرة لها؛ فهناك النظريات النفسية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيولوجية، والجغرافية ونحوها، وهناك الاتجاه التكاملي الذي يفسر الظاهرة الإجرامية بعوامل متعددة وكثيرة ولا يرجعها لعامل واحد.

وتعد ظاهرة تعاطي المخدرات من أخطر الظواهر المرضية والسلوكية التي تهدد مجتمعات اليوم، حيث يلحظ انتشارها الواسع بين الشباب والمراهقين. ونظراً لأن كافة الشعوب تضع العقوبات الصارمة على متعاطيها والمروجين لها، فإنه عادة ما يتم تعاطيها والإتجار فيها بسرية كاملة. وعادة ما ترتبط شبكة الإتجار في المخدرات بعصابات محترفة، ويتم توزيع المادة المخدرة عن طريق تجار محترفين يكونون عادة بمنأى عن رقابة السلطات الرسمية وأجهزة مكافحة المخدرات إلى حد كبير. وتعد نظرية المخالطة الفارقة أو الارتباط التفاضلي من بين النظريات الاجتماعية التي قدمت تفسيراً مناسباً للدوافع النفسية والاجتماعية الكامنة وراء الانحراف الاجتماعي ولجرائم ذوي الياقات البيضاء.

ويستهدف البحث الحالي تطبيق مقولات هذه النظرية في تفسير ظاهرة تعاطي المخدرات. ذلك لأن هذه النظرية تفترض أن الجريمة بشكل عام يتم تعلمها عن طريق توافر النماذج الإجرامية التي ترتبط ببعضها البعض بعلاقات وجهية مباشرة وقوية وخاصة. وهي بذلك تعد نظرية من وجهة نظر الباحثة مناسبة لتفسير ظاهرة تعاطي المخدرات باعتبار أن هذه الظاهرة تتطلب علاقة قوية بين المتعاطين أنفسهم وبينهم وبين مروجي وتجار المخدرات، وأن الثلة المنحرفة التي يرتبط بها المتعاطي لا بد أن تكون علاقته بها علاقة

قوية وتحظى بالسرية الكاملة، وأن المعرفة بأنواع المخدرات، وطرق تعاطيها، ومعرفة طقوسها وكيفية الحصول عليها–كلها عوامل تتطلب معرفة شخصية وسرية لا يمكن تحقيقها بعوامل أخرى.

وهناك أدلة بحثية كثيرة تؤكد على أن تعاطي المخدرات على علاقة بالارتباط برفاق السوء والأصدقاء الذين يرتبط بهم المتعاطي. إي أن هناك علاقة طردية قوية بين تعاطي الفرد المخدرات مثلاً وبين تعاطي أصدقائه؛ ذلك لأن تعاطي الأصدقاء كنموذج للتعاطي يمثل نوع من تقبل التعاطي في حد ذاته كسلوك مشروع؛ فالفرد ينخرط في التعاطي ليس لأن تعاطي المخدرات مرتبط فقط بالمجرمين والمنحرفين وسيئ الخلق والسمعة، ولكنه مرتبط أيضا بأفراد يكن لهم احتراما وتقديراً كبيرين، والفرد عادة ما يكتسب خبرة التعاطي من أصدقائه، وعادة ما يحصل على المخدر لأول مرة منهم أيضاً. ثم إن الأصدقاء هم المصدر الأول الذي يستقي منه الفرد معلوماته المفضلة عن المخدر وكيفية تعاطيه ثانياً. وفي كثير من جماعات الرفاق لا يعد تعاطي المخدرات أمراً مقبولاً فقط، ولكنه يصبح سلوكاً مطلوباً أيضاً، وتصبح جماعة الرفاق مهمة جداً عندما يتخذ الفرد قراره بتعاطي المخدر، وخاصة إذا كان ذلك التعاطي يجابه بمعارضة من أسرته (السمري، 2000: 244 . 245).

وتوصل عبد الله الصيرفي وآخرون (1988) إلى أن 82.2% من المبحوثين يقولون إن رفقاء السوء والفراغ كانا وراء انجرافهم وراء تيار المخدرات، (ورد في الحويج، 2007: 100).

وتوصلت إيمان محمد اسماعيل (1990) إلى أن لجماعة الأصدقاء دوراً في انسياق الفرد إلى تعاطي المخدرات (ورد في العزابي، 2012: 83).

وبينت نتائج دراسة عدلي السمري (1993) أن معظم أصدقاء المتعاطين يتعاطون المخدرات، وإن معظم المتعاطين تحصلوا على المخدرات وجربوها لأول مرة من أحد الأصدقاء والزملاء. كما شرب معظم أفراد المجموعة التجريبية الكحوليات لأول مرة عن طريق الأصدقاء. وتبين أن الأصدقاء هم المصدر الأساسي لحصول المتعاطي على المخدر وخاصة في البدايات الأولى للتعاطي وبالمجان في المرات الأولى، وقد أكد أكثر من نصف أفراد المجموعة التجريبية أنهم تحصلوا معلوماتهم عن المخدرات وشاهدوها عن طريق الأصدقاء (السمري في آمال عبد الحميد وآخرون، 2000: 274).

وتوصل لطفي (2008) إلى أن أكثر أسباب التعاطي هي صحبة ومخالطة الأصدقاء المتعاطين للمخدرات، وأن عدد أصدقاء المتعاطين هو ثلاثة فما دون، في حين وجد أن عدد أصدقاء أفراد الجماعة الضابطة هو أربعة أصدقاء فأكثر، وأن عدد أصدقاء الجماعة الضابطة خمسة أصدقاء فما فوق لا يتجاوز 18.1%، في حين بلغ مثيلهم في الجماعة التجريبية 50.6%، وهو ما يعني قلة عدد أصدقاء المتعاطين. وأن المتعاطين يتعاطون مع الأصدقاء أولاً، ثم مع أفراد الجيرة ثانياً، وأن 56% من المتعاطين تعلموا

التعاطي عن طريق الأصـــدقاء وهي أعلى نســـبة، ووجد أن المتعاطين يلقون تشـــجيعاً من أصـــدقائهم إن تعاطوا، ولكن يلقى غير المتعاطين شـجباً من أصـدقائهم إن فعلوا ذلك، وبين أكثر المتعاطين أن أصـدقاءهم يتقبلون تعاطيهم المخدرات، في حين بين أكثر غير المتعاطين أن أصـــدقاءهم لا يتقبلون تعاطيها. ووجد أن المتعاطين لديهم أشـخاص قبل بدء التعاطي متعاطين من الأصـدقاء، وأفراد الأسـرة والجيرة أكثر من مثيلهم لدى الجماعة الضـابطة وبمسـتوى له دلالة إحصـائية، وأن نسـبة المتعاطين زادت بعد اتصـال أصـحابها بالأصـدقاء، وأن حوالي 85% من أصـدقاء المتعاطين يحترمون القانون بدرجة قليلة أو لا يحترمونه إطلاقاً، وان أفراد الجماعتين يقابلون أصـــدقاءهم يومياً أولاً وأســـبوعياً ثانياً، وتبين أن معظم المتعاطين وأصـــدقاؤهم يتعاطون الحشـيش أولاً ثم المخدرات التخليقية ثانياً، وأن أغلب جرائم المتعاطين وأصـدقائهم هي السـرقة أولاً ثم الضـرب ثانياً(لطفي، 2008: 160–187). وتوصـلت هدى إبراهيم الرواب (1999) إلى أن لكل أفراد العينة أصدقاء يتعاطون المخدرات (ورد في عطوش، 2007: 106).

وفي البحث الحالي تســـتعرض الباحثة التعريف بالنموذج النظري، ومميزاته وفروض نظرية المخالطة الفارقة، وتوظيف هذه الفروض في تفسـير تعاطي المخدرات، واشـتقاق تلك الفروض من التصـور النظري المفترض لتفسير ظاهرة تعاطي المخدرات في ضوء مقولات هذه النظرية وملخص يوضح شكل العلاقة بين الفروض وفق تسـلسـلها المنطقي، ثم تقديم اسـتنتاج أو خاتمة تبرز أهم ما تضـمنه النموذج النظري للبحث الحالي، وتقديم جملة من التوصـيات والمقترحات في ضـوء التفسـير النظري لتعاطي المخدرات في ضـوء نظرية المخالطة الفارقة، وقائمة بالمراجع المستخدمة في البحث.

تحديد مشكلة البحث:

لقد تبين أن الفرد يتعلم تعاطي المخدرات من أصدقائه ومعارفه، ونظراً للقيود الصارمة التي تضعها المجتمعات اليوم على ظاهرة المخدرات، فإننا نفترض أن التعاطي سلوك يتم فعلاً بتقليد ومحاكاة المتعاطي للأشخاص المتعاطين الذين تربطه بهم علاقة قوية ومتكررة وفي سن مبكرة في العادة. لا شك أن الفرد يختلط بالنماذج السوية والنماذج غير السوية أثناء تفاعله معهم. لكن الفرد الذي لديه استعداد داخلي للانحراف، يمكن إغواؤه عن طريق الجماعة المنحرفة التي تزين له دروب الانحراف، وتبرر له سبل انحرافه، وتعلمه فنون السلوك المنحرف الذي يود تعلمه. وبناءً على ذلك فإن الفرد يصبح منحرفاً أو سوياً بناء على نوع النموذج الذي يرتبط به؛ فإن ارتبط بالنموذج الذي يمتثل للقانون، فسيكون سوياً وإن ار تبط بالنماذج المنحرف غير السوية، فسيصبح منحرفاً وهذا هو لب نظرية الاختلاط التفاضلي. وبناء على ذلك فقد تحددت مشكلة البحث الحالي في السؤال الرئيس التالي: هل ثمة علاقة على المستوى النظري بين الاختلاط التفاضلي والانسحاب الاجتماعي والتجاوز عن التعاطي وبين تعاطي المخدرات؟

أهداف البحث:

يستهدف البحث الحالي التعرف على المستوى النظري على ما إذا كانت هناك علاقة بين الاختلاط التفاضلي والانسحاب الاجتماعي والتجاوز عن التعاطي وبين تعاطي المخدرات.

أهمية البحث:

تبزغ أهمية البحث الحالي من الآتي:

1) إثراء الأدب الاجتماعي والمكتبات بموضوع المخالطة الفارقة ودوره في تعلم تعاطي المخدرات، وتقديم من ثم جملة من التوصيات للمختصين الذين يتصدون لمحاربة الانحراف بشكل عام ولمكافحة انتشار ظاهرة المخدرات بشكل خاص.

2) تقديم نموذج نظري يفسر ظاهرة تعاطي المخدرات في ضوء فروض نظرية الاختلاط التفاضلي يمكن تطبيقه في دراسات إمبيريقية مستقبلية.

3) تقديم مفاهيم ومصطلحات اجتماعية، ومن ثم إمكانية اشتقاق مقاييس تقيس هذه المفاهيم ما يثري البحث الاجتماعي في مجال الانحراف والجريمة.

4) ندرة الدراسات الاجتماعية التي استهدفت تفسير تعاطي المخدرات كجريمة خاصة في ضوء فروض نظرية المخالطة الفارقة، ودعم ذلك الاتجاه العلمي الذي يفسر الجريمة في ضوء نظريات التعلم.

5) وضع نتائج البحث الحالي أمام المسؤولين عن التنشئة الاجتماعية والأمن المجتمعي والصحة النفسية والإرشاد النفسي للاستفادة منها في الوقاية من تعاطي المخدرات، والتعريف بدور الأصدقاء المنحرفين في تعليم الفرد الانحراف.

منهج البحث:

يطبق البحث الحالي خطوات البحث العلمي النظري الذي يستهدف تطوير المعارف الموجودة في مختلف مجالات العلم، وشرح، وتوضيح البحث العلمي حتى لو لم يكن من الممكن تطبيقه، ولا يقوم هذا البحث بدراسة المشاكل اللحظية، بل يكمن هدفه الأساسي في تقديم الإجابات عن أسئلة الفرضيات، لذلك يطلق عليه اسم البحث المجرد أو البحث الأساسي، ويعتمد هذا البحث على التأمل والاستدلال، ومن خلاله يقوم الباحث بقراءة كافة الدراسات المتعلقة بمجال بحثه، ويرتكز على الكتابة الوصفية، أي عرض الحقيقة، وتفسيرها، وتحليلها، وتقديم النتائج لها بشكل كتابي على الورق، ويعني ذلك أنه يعتمد على العمل العقلي، وليس على العمل التجريبي، وهو يسعى إلى تطوير المفاهيم البحثية، وإضافة المعلومات الجديدة للمعرفة، وتستمد مصادر معلوماته من الكتب.

حدود البحث:

تتحدد حدود البحث بالآتي بالحدود الموضوعية التي تفسر تعاطي المخدرات في ضوء مقولات وفروض نظرية الاختلاط التفاضلي، وفي حدود معرفة الباحثة بالأدب النظري للجريمة ومزايا وقصور النظرية الاجتماعية الواحدة المفسرة للجريمة، وفي ضوء المراجع والمفاهيم المستخدمة في البحث الحالي.

مفاهيم ومصطلحات البحث:

وردت مفاهيم ومصطلحات في هذا البحث ما يتطلب تعريفها ومن بينها:

1) النظرية:

عرف "كابلان" نقلا عن عبد الرحمن والبدوي النظرية بأنها "بناء فرضي رمزي يتضمن مجموعة من القوانين المتسقة منطقياً؛ فكل قانون يستنتج مباشرة من القانون السابق عليه والقانون يفسر الواقعة عن طريق ربطها بالواقع" (ورد في عبد الرحمن والبدوي، 2005: 42).

2) المخالطة الفارقة (الارتباط /الاختلاط التفاضلي):

وهو من "أبرز الاتجاهات السوشولوجية المفسرة للسلوك الإجرامي، وتعتبره سلوك متعلم يتطلب من الحدث المنحرف تعلم وسائل إجرامية تكون بمثابة الدافع الرئيس لارتكابها، ويتم تعلم هذه الوسائل من خلال مجموعة من الاتصالات والعلاقات الشخصية داخل جماعات تتميز بالتقارب والألفة بين أفرادها والتأثر بتوجيههم نحو تصرف معين في مواقف معينة" (الخطيب، المجالي، 2022: 456).

ويعرف الاختلاط التفاضلي إجرائياً من خلال شرح وتفسير تعاطي المخدرات في ضوء مقولات وفروض نظرية المخالطة الفارقة المتضمنة في النموذج النظري للبحث الحالي.

3) المخدرات:

المخدرات هي "كل مادة خام أو مستحضر تحتوي على عناصر منومة، أو مسكنة من شأنها عند استخدامها في غير الأغراض الطبية، أو الصناعية أن تؤدي إلى حالة من التعود أو الإدمان عليها، ما يضر بالفرد والمجتمع جسمانياً، ونفسياً، واجتماعياً" (العزابي، 2012 :54).

وتعرف المخدرات إجرائياً بأنها أي مادة منومة أو مسكنة غير مرخص باستعمالها ويسبب الإدمان عليها اعتماداً نفسياً وعضوياً وتصبح بمثابة عادة لمتعاطيها.

4) تعاطي المخدرات:

يعرف حسين فايد (2006) التعاطي بأنه "تناول أي مادة من المواد المؤثرة نفسياً والتي تؤدي إلى الاعتياد أو الإدمان وذلك التعاطي إما أن يكون بشكل دائم أو متقطع"(فايد، 2006: 51).

5) التجاوز عن تعاطي المخدرات:

يعني التجاوز خروج الفاعل من دائرة المباح بعد دخولها، أو هو تجاوز الحد المادي للظرف المبيح، أو تخطي الحدود المقررة للإباحة قانونا، أو هو استعمال قوة أكثر من اللازم أو الخروج على حد التناسب، كما يعرف بأنه الخروج بالحق عن حدوده سواء عمدا أو عفوا. ويعني التجاوز عن استعمال المخدرات اعتقاد المتعاطي بأحقيته في تعطي المخدرات لمبررات واهية وغير مشروعة يسوقها لنفسه مثل: رغبته في التحرر من الشعور بالقلق والتضايق والملل والاكتئاب والشعور بالدونية، والشعور بالسعادة، ولمواجهة مطالب الحياة والتغلب على مشاعر الإحباط والقنوط، والشعور بالوحدة النفسية، وبأن التعاطي لا يضر أحداً، وأنه مسألة شخصية بحتة.

ويعرف التجاوز عن تعاطي المخدرات إجرائياً بتقديم مبررات للتعاطي مثل: الرغبة في التغلب على الشعور بالقلق، واستدماج فكرة التعاطي في منظومة الشخصية، واعتبار التعاطي مسألة شخصية، وغير معيبة، وأنه مسلك عادي وأن العديد يمارسونه في مرحلة عمرية ما لاعتبارات نفسية واجتماعية.

6) الانسحاب الاجتماعي:

يعرف الانسحاب الاجتماعي بأنه نمط من السلوك، يتميز عادة بإبعاد الفرد عن نفسه وعن القيام بمهمات الحياة العادية، ويرافق ذلك إحباط وتوتر وخيبة أمل، والابتعاد عن مجرى الحياة الاجتماعية العادية، ويصاحب ذلك عدم التعاون وعدم الشعور بالمسؤولية، وأحياناً الهروب إلى درجة ما من الواقع الذي يعيشه الفرد.

ويعرف الانسحاب الاجتماعي إجرائياً بميل الفرد للعزلة الاجتماعية والوحدة النفسية والاغتراب وفقدان التفاعل الاجتماعي والسلوكي مع الآخرين، والعجز عن التوافق النفسي والاجتماعي مع المحيط، وشخصنة العلاقات الاجتماعية، وعدم تحمل المسؤولية، والهروب من الواقع، والاستغراق في أحلام اليقظة والميل لحياة الدعة والكسل والخمول.

7) النموذج:

يعرف التير (2013) النموذج بأنه "مجموعة تصورات حول الكيفية التي يتصور بها العالم أو الظاهرة. هو تصـــور حول الظاهرة يوجه الباحث نحو العناصـــر أو المتغيرات التي يمكن الاهتمام بها. هو نموذج نظري يتألف من مفاهيم وتصـــورات ودعاوي وقضـــايا تتصـــل بمجال رئيس". الباراديجم ليس بنظرية؛ فقد يتركب من عدد كبير من النظريات، قد تتصـــل جميعها بمدرســـة نظرية واحدة، وقد تســـتمد النظريات من مدارس مختلفة"(التير، 2013: 46).

نموذج نظري لتفسير تعاطي المخدرات في ضوء نظرية المخالطة الفارقة:

يرى "ديفيد ويللر" أن النموذج عبارة عن "تصور لمجموعة من الظواهر يتم تكوينه على أساس عقلاني، ويكون هدفه النهائي تزويد النسق الصوري الذي عندما يتم تحقيقه أصبح نظرية، وبالحدود والعلاقات والقضايا.... ويرتبط هذا التعريف بصورة أو بأخرى بفكرة "ماكس فيبر" عن النموذج المثالي والذي حدده بأنه "تصور عقلي وبناء فكري يطرحه الباحث مسبقاً لتوجيه البحث ومتطلباته وإجراءاته الميدانية، كما أنه (النموذج) يرتبط بذهن الباحث وتصوره حول دراسة الواقع بصورة مباشرة أو غير مباشرة"(عبد الرحمن، 2006: 60).

النماذج العلمية عبارة عن صياغات تصورية منسقة على نحو مبسط تضع العناصر المتشابكة في شكل أطار محدد. وللنماذج وظائف محددة من أهمها أنها تقدم لنا صوراً من النظريات، مثل نموذج علم الاجتماع الوضعي أو العضوي، أو الصراعي الخ... وتمكن النماذج من إدراك وبسرعة وعلى نحو شامل أنواع العلاقات بين المتغيرات التي تعبر عنها النظريات. ويمكن إخضاع النتائج المشتقة من هذه التوقعات لمزيد من الفحص الشامل. وبما أن هذه النتائج لا وجود لها، فإنه يمكن صياغة إجراءات بحث وتصميمات تساعد على اشتقاقها. كما تبين النماذج بوضوح حدود النظريات ونطاقها التصوري لأنها تعمل من خلال تركيز اهتمامها على الظواهر التي تشتمل عليها النظرية.

"يستخدم مصطلح "نموذج" أحيانا بدلاً من مصطلح نظرية أو مرادفاً له، ويمكننا النظر إلى كل من النموذج والنظرية باعتبارهما أدوات شرح أو محاور لها إطار مفاهيمي واسع. وتتصف النماذج في اغلب الأحيان بأنها تستعمل التشبيهات لإعطاء صورة بصرية أو بيانية عن الظاهرة المراد شرحها، وإذا التزمت النماذج بالدقة وعدم تحريف الحقائق فيمكنها أن تساعدنا كثيراً على الوصول إلى وضوح الرؤية والتركيز على القضايا الأساسية في طبيعة الظاهرة موضوع الدراسة"(كوهين، ومانيون، 1990: 35).

يفيد النموذج model في معرفة مدي بداية حدود أو نهاية النظرية ومعرفة ما تفيد في تفسيره أو تخفق فيه. كما يفيد النموذج في تحديد العلاقات المتداخلة بين خصائص الظواهر مثل نموذج الأسرة، ولكن يؤخذ على بعض النماذج عجزها عن التفسير؛ فنمط الأسرة النواة مثلا لا يفيد في تفسير أي شيء داخل هذه الوحدة. هذا وتتميز النماذج بالآتي:

1) النموذج مثال يمكن الاقتداء به.

2) النموذج تصور للطريقة التي يرتبط بها اثنين أو أكثر من المفاهيم.

3) النموذج بناء من العلاقات والعناصر يوضح التفاعل بينهم ويمثل جزءاً من الواقع.

4) النموذج بناء مفاهيمي يبسط الأجزاء المعقدة من الواقع ويحدد المكونات الرئيسية ويوضح العلاقات المتبادلة بين هذه المكونات.
5) النموذج هيكل يحتوي على مجموعة من المتغيرات بينها علاقات متبادلة لها تماثل مع المتغيرات والعلاقات القائمة في الحياة الواقعية، ويهدف النموذج إلى الاسترشاد به في الفهم والتفسير.
6) النموذج أداة يسترشد بها الباحث في وصفه وتفسيره للواقع أو للظاهرة التي يدرسها (أبولغد، ومليكة ، 159:1995).

ويمكن للباحث إعداد مقاييس لمتغيرات النمط الفرضي وتحليل بياناتها. وليس من الضروري أن يتحقق النمط الفرضي تحقيقاً كاملاً، ذلك لأن النمط هو أداة تصويرية تفيد الباحث في تنظيم بياناته، كما تفتح أمامه أفاقاً جديدة جديرة بالاهتمام. هذا ولقد لعبت الأنماط الفرضية دوراً مهماً في تطوير علم الاجتماع وتنمية المعرفة الاجتماعية من منظور تاريخي مقارن. كما أن صياغة الأنماط الفرضية ساعدت الباحثين على التعرف على العلاقات البنائية لكثير من الظواهر والعلاقات والأنظمة، وكشفت عن الاختلافات التي يمكن أن تكون قائمة بين الواقع والنظريات التي تسعي إلى تفسيره على نحو أسهم في تعديل هذه النظريات.

وتعتبر نظرية المخالطة الفارقة من النظريات الاجتماعية القوية التي أفادت في تفسير السلوك الإجرامي. ويرجع الفضل إلى العالم الأمريكي "أدوين سذرلاند" (1883–1950) الذي أسس هذه النظرية ولقب بعميد مدرسة علم الإجرام وبخاصة في أمريكا. ولقد تأثر "سذرلاند" بأفكار المدرسة السلوكية الواطسونية التي سادت أفكارها عام (1920)، كما اعتمدت نظريته على نظرية التفكك الاجتماعي التي طرحت حول الجريمة، إذ إنه يعتقد أن الجريمة تسبقها ظروف اجتماعية تؤثر في متغيرات نفسية مثلت هذه الظروف حالة من عدم التنظيم الاجتماعي التي تعتري البناء الاجتماعي، فتخل بوظائفه وأنساقه الاجتماعية والتي من أهمها نظام الضبط الاجتماعي والمؤسسات التي تعمل على أداء هذه المهمة مثل الأسرة والمدرسة والنادي ونحوها. فهذه الوظائف هي التي تؤدي إلى انتقال السلوك من أشخاص مجرمين إلى أشخاص ليسوا من فئة المجرمين عن طريق تعلم هذا السلوك، وذلك من خلال انخراط الفرد في تلك الجماعات التي تبيح مثل هذا السلوك الإجرامي (بن عودة، 2007).

وبناءً على ذلك فقد رفض "سذرلاند" أثر الوراثة في إحداث السلوك الإجرامي ورأى أن السلوك الإجرامي يعتمد اعتماداً كاملاً على اختلاط الشخص بالأفراد غير الأسوياء واكتسابه السلوك الشاذ من معاشرته إياهم وانفصاله عن الجماعة التي تحرص على احترام القانون، ومن هنا جاءت تسمية نظريته بالاتصال أو الاختلاط الفارق، أي اتصال الشخص برفاق السوء اتصالاً يفرق بينه وبين الأسوياء.

ويستهدف البحث الحالي توظيف مقولات هذه النظرية في طرح نموذج نظري يفسر تعاطي المخدرات وتندرج هذه النظرية تحت فئة النظريات النفسية الاجتماعية المفسرة للسلوك المنحرف. أي أنها ترجع الجريمة إلى عامل نفسي وعامل الاجتماعي. وهي بذلك سعت إلى تحقيق التوازن بين العوامل الفردية والعوامل الاجتماعية عند دراسة السلوك المنحرف. وتنظر هذه النظرية النفسية ـــ الاجتماعية إلى أن الشخص المجرم إنسان عادي وسوي سواء من حيث النمط الجسماني أو العقلي، أو نمط الشخصية، وأن لديه نفس الدوافع التي تؤثر في سلوك الشخص السوي من حيث فكرته عن الصواب والخطأ. كما أنه يعيش في مجتمع مفكك يميل إلى خلق الانحراف بين أفراده. فمناطق الجريمة والانحراف تسودها القيم التقليدية والقيم الإجرامية معاً، ومن ثم يتعرض الأفراد لكلا النمطين من القيم. ولذا تصبح الجريمة في نظر "سذرلاند" فعلاً منظماً إلى حدٍ كبيرٍ، وهي نتاج لعملية منظمة تخضع لمجموعة من القواعد والمعايير. ويؤكد "سذرلاند" في نظريته على أن السلوك الإجرامي سلوك يتم تعلمه واكتسابه في بيئة اجتماعية، وهو يرى أن كافة أنماط السلوك يتم اكتسابها بطريقة مماثلة. غير أن الاختلاف بين تعلم السلوك التوافقي وبين السلوك الإجرامي يكمن فيما يتم تعلمه أكثر من الكيفية التي يتم التعلم أو الاكتساب من خلالها (وليامز الثالث وماك شين، 1996: 123. 124).

يرى "سذرلاند" أن السلوك الإجرامي هو نتاج تغلب العوامل الدافعة إلى عدم احترام القانون الجنائي على تلك العوامل الدافعة إلى احترام هذا القانون. ولتفسير السلوك الإجرامي يطالب "سذرلاند" أولاً باستبعاد الأسباب العامة التي يتقاسمها كل من السلوك الإجرامي والسلوك غير الإجرامي. فمثلا السارق يلجأ إلى السرقة للحصول على المال، كما أن الرجل الشريف يعمل للحصول على المال. ولهذا لا يمكن تفسير سلوك السارق بالكد من أجل الحياة أو من أجل السعادة، أو بسبب الحاجة إلى المال أو الحرمان منه. ولذا لا يمكن تبرير سرقة المال للحصول على المال، ما دام بوسع المرء الحصول على المال بطرق العيش الشريف. لا شك أن المال المشروع والمال غير المشروع يشتريان نفس السلع. لكن يكمن الفرق في أنه لا يجوز للفرد سرقة المال لشراء متطلباته ما دامت تتوافر أمامه فرص كسب المال بالطرق المشروعة، وتوجد قوانين تعاقب على السرقة. وقد رفض "سذرلاند" فكرة أن السلوك يورث.

طرح "سذرلاند" فكرته عن نظريته المخالطة الفاصلة أو الفارقة، لأول مرة في الطبعة الثانية من كتابه "مبادئ علم الإجرام" عام (1934). حيث قال إنه يمكن تدريب أي شخص على تبني وإتباع أي نمط من السلوك، ما دام هو قادر على أدائه أولاً. كما أن الفشل في إتباع نمط معين من السلوك يرجع إلى عدم التوافق، ونقص التناغم أو التوازن في المؤثرات التي توجه الفرد ثانياً. كما أن صراع الثقافات هو العنصر الأساسي في تفسير الجريمة ثالثاً. ويشير مصطلح المخالطة الفارقة أو الفاضلة عند "سذرلاند" إلى تباين واختلاف تصورات الأنماط المطروحة عن المخالطة من شخص لآخر. وهكذا فإن مجرد مخالطة المجرمين

لا تؤدي إلى ارتكاب السلوك الإجرامي. ولكن بدلا من ذلك، فإن محتوى أو مضمون هذه الاتصالات الذي ندركه من خلال مخالطة الآخرين هو محور الاهتمام الأساسي. ومن ثم فإن الجريمة تعد نتيجة لصراع القيم. بمعنى أن الفرد قد يمارس نمطاً سلوكياً يتوافق مع قيم الثقافة الخاصة. ولكنه غير مقبول من ثقافة المجتمع الأمريكي الأكبر. بمعنى آخر يرى "سذرلاند" أن السلوك الإجرامي المنظم يرجع بالدرجة الأولى إلى المخالطة الفارقة في موقف يوجد به صراعات ثقافية، وبصورة أكثر تحديدا يرجع إلى التفكك الاجتماعي في ذلك الموقف. ولكن تراجع "سذرلاند" في طبعات أخرى لكتابه عن بعض أفكاره. حيث رفض استخدام المنظورات الثقافية المختلفة في تفسير السلوك الإجرامي مثل التفكك الاجتماعي، واستخدم بدلاً من ذلك مفهومات التنظيم الاجتماعي المتباين (ماك شين ووليامز الثالث، 1996: 127 . 128).

لا شـــك أن الإنســـان اجتماعي بطبِعه، ولذا فهو يحرص على أن ينتمي لجماعة بشـــرية ما؛ فحاجة الإنســـان للانتماء تأتي بعد إشـــباع الحاجات الفســـيولوجية والحاجة للأمن. غير أن الفرد لا يرتبط مثلاً إلا بأولئك الذين يقاربونه في العمر والطبقة الاجتماعية والميول والاهتمامات. ويعتبر تعاطي المخدرات على علاقة قوية بارتباط المتعاطي بأفراد متعاطين، وتؤكد أدلة أمبيريقية كثيرة على أن أول العوامل التي تدفع للتعاطي هي ارتباط المتعاطي بأفراد متعاطين.

والارتباط بالآخرين قد يكون إيجابياً، أو ســـلبياً، ومن أمثلة الارتباط الإيجابي ارتباط الطالب بالزملاء المتفوقين دراسياً، والأمناء، والممارسين للأنشطة السوية. ومن أمثلة الارتباط السلبي بالآخرين ارتباط الفرد برفاق الســوء الذين يزينون له دروب الجريمة والانحراف، ويعلموه فنون الانحراف وأســاليبه، ويقنعوه بالحاجة لممارســـة الانحراف لمزاياه المادية والنفســـية، مثلما هو الحال في تعاطي المخدرات والمســـكرات والســـرقة والعنف والعدوان، والهروب من المدرســـة، والغش في الامتحانات، وكل ما يقود إلى التمرد على الســـلطات ويخل بوظائفها.

ويعرف هيرشـــي (1989) الانحراف أو الجنوح بأنه " مجموعة الأفعال التي يؤدي اكتشـــافها إلى عقاب مرتكبها بواسطة قوى المجتمع الأكبر"، (هيرشي، 1989: 77).

تعد نظرية المخالطة الفارقة من بين أبرز النظريات التي فسرت علاقة الجريمة بالارتباط بالمجرمين. لا شـــك أن البيئة الاجتماعية تعرض النماذج الإيجابية والســـلبية للســـلوك. غير أن الفرد الذي لديه اســـتعداد داخلي للإجرام يرتبط عادة بالنماذج الإجرامية أكثر من ارتباطه بالنماذج الســـوية. والســـلوك مهما كان نوعه وفق هذه النظرية متعلم بالتقليد والمحاكاة، وبتغليب مبررات الانحراف على مبررات الكف عنه. ويعني مصـــطلح المخالطة الفاضـــلة تباين واختلاف تصـــورات الأنماط المطروحة عن المخالطة من شـــخص إلى آخر، ولذلك فإن الفرد لا يصبح مجرماً لمجرد اختلاطه بمجرمين، ذلك لأن مضمون ومحتوى الاختلاط هو الذي يحدد سواء سلوك الفرد من عدمه.

يوضح مصطلح المخالطة الفارقة أن الأفراد . مثل الجماعات . معرضون لمخالطات متباينة مع أفراد يتباينون في مدى احترامهم للقانون أو انتهاكهم له، ومن ثم فإن الفرد عندها سوف يميل إلى ارتكاب الجريمة، أو ينأى عنها تبعاً لمعايير الرفاق الثقافية، وبخاصة هؤلاء الرفاق الذين يقضي معهم فترات متكررة طويلة (وليامز الثالث وماك شين، 1996: 131).

تفترض نظرية الاختلاط التفاضلي إذن أن السلوك الإجرامي متعلم، وأن تعلم السلوك الإجرامي يتم بالاختلاط وعبر التواصل مع الآخرين بطرق الاتصال المختلفة والمعروفة، وأن السلوك الإجرامي يتم تعلمه عن طريق العلاقات بين أفراد جماعات تربطها علاقات حميمة، وأن تعلم السلوك الإجرامي يتضمن كيفية ارتكاب الجريمة، والتوجيه الخاص للبواعث والدوافع والاتجاهات والمواقف. كما تفترض هذه النظرية أنه في كل مجتمع توجد اتجاهات ومواقف سلبية تدفع الفرد لمخالفة القانون، كما توجد قوى واتجاهات إيجابية تحث الفرد على الامتثال للنظام والقانون، وأن الفرد يفاضل بين هاتين المجموعتين. ولذا فإن الفرد يصبح مجرماً عندما ترجح لديه كفة الاتجاهات السالبة التي تحرضه على الجريمة، ويصبح ممتثلاً للقانون عندما ترجح لديه كفة الاتجاهات الإيجابية التي تدعو لضرورة احترام القانون، وهذا هو مبدأ الاختلاط التفاضلي.

وهكذا يتضح أن المجرم يصبح مجرماً بسبب انفصاله عن الجماعة التي يسود فيها احترام القانون. فعندما يرتبط الفرد بجماعة منحرفة، فإنه يصبح منحرفاً بسبب تقليد أفرادها المنحرفين وبسبب انتشار القيم الإجرامية بينهم. لكن العكس صحيح أيضاً. فالفرد الذي يرتبط بجماعة تحترم القانون وتندد بالجريمة، سيتعلم نبذ الجريمة والمجرمين ويتعلم الامتثال للقانون أيضاً. ويتأثر الاختلاط التفاضلي بالجماعة الإجرامية والجماعة السوية بعدد مرات تكرار الاتصال أو الارتباط وقوة تأثيرها وأولويتها في حياتهم. ولذلك فإن كثرة الاتصال بالمجرمين تقود الفرد للجريمة، كما أن لقوة التأثير مفعولها. فالعبرة ليست بكثرة الاتصال، ولكن بعمق الاتصال أيضاً. فالفرد المنحرف يجعل صديقاً له منحرفاً إذا كانت علاقته به وثيقة ومؤثرة، كما أن تعلم السلوك الإجرامي يتم بشكل أسهل في الصغر.

فروض نظرية الاختلاط التفاضلي:

تتلخص فروض نظرية سذرلاند في الآتي:

1) إن السلوك الإجرامي سلوك مكتسب غير موروث يتعلمه الفرد من خلال اختلاطه بأفراد آخرين، وذلك بعملية تواصل أو عملية تفاعل اجتماعي بين الأفراد الذين ينتمون إلى الجماعة الواحدة أو المجتمع الواحد، وقد يكون هذا التواصل الاجتماعي لفظياً، أي باللغة الكلامية الشائعة أو بلغة الإشارة أحياناً.

2) لا تجري عملية التعليم هذه بين أطراف متباينة وبصورة عشوائية، ولكنها تتم بين أشخاص على درجة قوية من الصلة الشخصية أو على درجة واضحة من الصداقة أو الزمالة، وهو ما يعني أن يكون بين هؤلاء

الأفراد علاقات أولية مباشرة. وينفي قيام مثل هذا التواصل عبر وسائل ثانوية كالراديو والتلفزيون والصحف والسينما أو غيرها من وسائل التواصل العامة والتي تشكل ما يعرف بالعلاقات الثانوية بين أفراد المجتمع.

3) إن ما يتعلمه الفرد خلال اختلاطه بالآخرين يتكون من جانبين أساسيين: الجانب الأول ويتصل بتعلم العناصر المادية التقنية التي تتعلق بطرق ارتكاب الجريمة، ووسائل التحضير لارتكابها، وعمليات التخطيط والأعداد والتنفيذ، وكافة الأعمال اللاحقة على ارتكابها. ويتضمن الجانب الثاني تلك المواقف والاتجاهات والبواعث والتبريرات التي تدفع الفرد في سبيل ارتكاب الجريمة، أو ترسم له الإطار الفلسفي الإجرامي الذي يبرر له ارتكاب الفعل المجرم، أو يمهد له العيش في عالم الجريمة السفلي والانتماء إلى مجتمع الجريمة والمجرمين.

4) تتم عملية تكوين الاتجاهات الإجرامية وبالتالي ممارسة السلوك الإجرامي بنوعين من القوى: مجموعة القوى الأولى: وهي تمثل تلك الاتجاهات والمواقف السلبية التي تدفع الفرد أو تشجعه على مخالفة القانون وارتكاب الجريمة. ومجموعة القوى الثانية: وهي تمثل الاتجاهات والمواقف الإيجابية التي تشجع الفرد على احترام النظام والقانون، وبالتالي تصرفه عن ارتكاب الجريمة. وبناءً على ذلك فالاتجاهات السلبية المبررة للجريمة تعد قوة محركة دافعة، تسهل للفرد عملية ارتكاب الجريمة، وتهيئ له الإطارين المادي والمعنوي لارتكابها. أما الاتجاهات الإيجابية فهي ذات قوة رادعة مانعة، تهيئ للفرد عناصر المقاومة ضد إغراء بعض الظروف والمواقف المشجعة على ارتكاب الجريمة.

5) يصبح الفرد مجرماً أو جانحاً عندما ترجح لديه كافة القوى السالبة أو المشجعة على ارتكاب الجريمة على تلك القوى الإيجابية أو غير المشجعة على ارتكاب الجريمة، وهو ما يعني أن الفرد لا يصبح مجرماً إلا إذا تغلبت اتجاهاته نحو ارتكاب الجريمة على اتجاهاته التي لا تشجع على ارتكابها. وبالمثل لا يصبح الفرد مجرماً إذا تغلبت اتجاهاته التي تندد بالجريمة ولا تبرر باقترافها على تلك الاتجاهات التي تشجع على ممارستها. والفرد الذي يزيد اتصاله بالأنماط الإجرامية، يصبح مجرماً وذلك لتأثره بها ومحاكاته لها. ولا يصبح الفرد مجرماً عندما يزيد انفصاله عن تلك الأنماط الإجرامية التي تبرر الجريمة، حيث لا يتأثر بها ولا يعمل على تقليدها، فيظل بالنهاية شخصاً يحترم القانون ولا يرتكب ما يخالفه. وهكذا تصبح العملية تعادل قوى بين مجموعتين متناقضتين من المواقف والاتجاهات.

6) المواقف والاتجاهات الإجرامية السالبة ليست قوى ديناميكية وذات تأثير واحدٍ على جميع الأفراد وبأسلوب واحد. ذلك لأن الاتجاهات التي تشجع على ارتكاب الجريمة ذات تأثير نسبي. إذ يختلف تأثيرها بالنسبة لاختلاف الأفراد وبالنسبة لاختلاف الجماعات، وهو ما يعني أنها تعمل تفاضلياً، أي وفقاً للعوامل

التي تحيط بها ولمدى قوة هذه العوامل. فتأثير هذه العوامل يتوقف على عامل التكرار، ومدة التكرار، وعمق الاختلاط، وقوته أو قوة تأثيره على الأفراد الذين يتعرضون له.

7) لا يتضمن الاختلاط التفاضلي بين الأفراد انتقال الأنماط السلوكية الإجرامية فقط، ولكنه يتضمن أيضاً انتقال الأنماط السلوكية غير الإجرامية، ويختلف تأثير الأنماط السلوكية على الأفراد بالدرجة الأولى باختلاف مدى تكرر هذه الأنماط ومدة تكرارها. ولذلك فعندما يتعرض الفرد إلى بعض المواقف والظروف بصورة متكررة، ولمدة طويلة نسبياً، فإنه يستجيب لها ويعمل على تقليدها.

8) يختلف تأثر الفرد بالأنماط السلوكية باختلاف أولويتها في حياته؛ ولذلك فإن السلوك الذي يتعلمه الطفل في مرحلة مبكرة من حياته يظل راسخاً، حيث تستقر آثاره طيلة حياته المستقبلية. فلو تعلم الطفل حب القانون واحترامه مثلاً صار مواطناً صالحاً يخشى القانون ويحترمه طيلة حياته. كذلك تتوقف أهمية السلوك موضوع التقليد على مصدر هذا السلوك. فالفرد يتأثر بسلوك شخص آخر يمثل لديه مكانة خاصة. ولذلك فإن الفرد عادةً ما يقلد سلوك شخص آخر يحترمه ويكن له تقديراً خاصاً، ويحظى بتعاطفه معه إلى حدٍ كبيرٍ. فالقدوة هي مصدر التقليد. والفرد قد يقلد سلوك شخص سوي أو غير سوي. لكن التقليد وحده لا يكفي لتعلم الفرد. ذلك لأن الفرد قد يتعلم بأية وسيلة أخرى تصلح لما يود تعلمه. فالفرد قد يتعلم من خبرة قاسية مر بها في ظروف معينة، كأن يتعرض مثلاً لعملية نصب أو احتيال وقع عليه.

9) حين يعبر السلوك الإجرامي عن احتياجات الفرد وعن قيمه، إلا أن تفسير هذا النوع من السلوك بالذات لا يتم بناء على الاحتياجات والقيم. ذلك لأن السلوك السوي يعبر هو الآخر عن نفس الاحتياجات والقيم (كاره، 1985: 309).

وقد وجهت عدة انتقادات لنظرية الاختلاط التفاضلي منها: أنه إذا كان الإجرام متعلم، فكيف تعلم أول مجرم إذا انتفى الإجرام قبله؟، وهي لا تفسر الجرائم العاطفية والتي تتم بالخطأ غير المقصود، ولا تفسر الجرائم التي لا يكون لأصحابها علاقة بالمجرمين، أو بنماذج إجرامية، وهي لا تفسر حالة من يعيش في محيط إجرامي لكنه لا يتحول إلى الإجرام، ولا تميز بين السلوك المنحرف والسلوك غير المنحرف، وكلاهما مكتسب بالتعلم، وهي لا تأخذ بعين الاعتبار العامل النفسي للدافعية، ولا تقدم تفسيراً مقنعاً للنسبة الفارقة للانحراف وفق متغيرات كالعمر، الجنس، التمدن، الانتماء لجماعة أقلية، (بوخميس، 2010: 64-65).

غير أن هذه الانتقادات لا تفقد النظرية أهميتها من حيث توجيه البحث إلى جانب آخر من جوانب سببية الجريمة، ألا وهو تأثير الاختلاط في ارتكاب بعض الجرائم وخاصة منها الجرائم المنظمة كالمخدرات وبعض جرائم العنف (أبوتوتة، 2002: 99).

تظل نظرية الاختلاط أو الارتباط التفاضـــلي من بين تلك النظريات الفعالة التي نبهت إلى دور الارتباط بالجماعة في تعلم السلوك السوي وغير السوي، ونبهت إلى دور نوع الجماعة التي يرتبط بها الفرد في تعلمه ســـلوكها. لكن المؤكد أن الفرد يتعلم الانحراف من تلك الجماعة المنحرفة التي يفوق ارتباطه بها ارتباطه بأية جماعة أخرى، وبخاصة عندما يعرف أكثر ممارستها السلوكية خصوصية وسرية مثل تعاطي المخدرات، وأن هذه المعرفة لن تتســـنى بالطبع إلا للمقرب جداً من هذه الجماعة، والذي لديه الرغبة والاستعداد لممارسة سلوكياتها عن قناعة، وهذا هو معنى النسبة الفارقة. كما أننا نسلم بأنه لا توجد بعد تلك النظرية الكاملة لتفسير الانحراف، وذلك لتعدد العوامل المسئولة عنه.

وهو ما يبرر ضرورة تعدد النظريات التي ينبغي صياغتها لتفسير السلوك المنحرف ثم اختبارها إمبيريقياً والخروج من ثم بنظرية النظريات التي تفســـر ظاهرة الانحراف تفســـيراً شـــافياً، وهذا ليس بالظفر الســـهل بالطبع. مع النقد الذي وجه لنظرية الارتباط التفاضـــلي في تفســـير الجريمة، إلا أنها تظل في تقديرنا نظرية مناسبة لتفسير سلوكات منحرفة معينة، وتظل فروضـها قابلة للتأييد أو للتطوير أو حتى للرفض شـأنها في ذلك شـــأن أي نظرية أخرى ادعت في حقبة ما أنها نظرية متكاملة، ولا ســـيما إذا كانت نظرية في مجال تفسير الظواهر الاجتماعية والنفسية. وفيما يلي نقدم تصوراً يوضح كيفية تشكل العلاقة بين الفروض الذي نقترحه لتفسير تعاطي المخدرات في ضوء نظرية الارتباط التفاضلي، وذلك على النحو الآتي.

الاختلاط التفاضلي وتعاطي المخدرات:

يشير مفهوم الاختلاط التفاضلي أو الارتباط التفاضلي أو المخالطة الفارقة –وهي كلها بمعنى واحد– إلى ذلك "الاتصـــال والاختلاط برفاق الســـوء والمنحرفين، والانجذاب لنمط ســـلوكهم المنحرف، وتعلمه مع تكرار المخالطة واســـتمرارها، بحيث تصـــبح جماعة الرفاق في هذه الحالة جماعة مرجعية". (آل ســـعود، 1998 :7).

أما تعاطي المخدرات فيعني استخدام المادة المخدرة أو العقار في شكل تدخين أو شم، أو حقن عن طريق الإبر، أو بلع لأغراض غير طبية، وقد يتحول تعاطي المخدر إلى الاتجار فيه أو ترويجه. المخدرات" مواد تتوافر فيها القدرة على التفاعل مع الكائن الحي؛ فتحدث حالة من اعتماد نفسي أو عضوي أو كليهما معاً، وقد تتناول هذه المادة النفســـية في ســـياق طبي أو غير طبي دون أن يترتب على ذلك بالضـــرورة حدوث الاعتماد، ولكن وبمجرد حدوث حالة اعتماد، تختلف خصـــائصـــها باختلاف فئة الحالة النفسية المعينة، وهي كل المواد الخام أو المستحضرة، وتحتوي على خواص منبهة أو مسكنة من شأنها إذا استخدمت في غير الأغراض الطبية والصناعية الموجهة أن تؤدي إلى حالة من التعود، أو الإدمان عليها ما يضر بالفرد والمجتمع جسمياً ونفسياً واجتماعياً"، (علي، 2000: 170).

ولكن كيف يرتبط الاختلاط التفاضلي باستعمال أو تعاطي المخدرات؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقدم التحليل الآتي:

لا شك أن الطيور ذوات الريش الواحد تطير معاً؛ ولذلك فإن الفرد الذي لديه استعداد إجرامي لابد وأن يرتبط بأولئك الأفراد المنحرفين لأنهم يقدمون له الدعم المعنوي والمادي لكي ينحرف. فعندما يلاحظ المرء تمتع بعض المجرمين بالوجاهة والتقدير من قبل أقرانهم، ويلاحظ قدرتهم على إغوائه وتزيين التعاطي له، ويلمس عن قرب متعة التعاطي، فإنه سيحن باستمرار إلى الاختلاط بهؤلاء المتعاطين لكي يتكون لديه الاقتناع الداخلي بالتعاطي. ونظراً لرغبته العارمة في التعاطي، فإنه لن يرتبط بأولئك الذين ينبذون التعاطي، وكلما تعمق ارتباطه بالمتعاطين وقل ارتباطه بغير المتعاطين، تحقق هدفه وهو الميل باتجاه التعاطي والدفاع عنه، وقلة شجبه للتعاطي وعلى هذا النحو يصبح الفرد مرتبطاً بالمتعاطين.

تكمن فلسفة الاختلاط أو الارتباط التفاضلي في أن الفرد مثلاً لا يرتبط بأية جماعة، وإنما هو ينتقي الجماعة التي تحقق له مآرب معينة، أو التي صار ارتباطه بها يفوق الارتباط بأية جماعة أخرى. لا شك أن ارتباط الحدث أو الولد بالعصابة لا يبعده تماماً عن المؤسسات المألوفة، ولكن عندما يكون هذا الحدث على الناصية مع العصابة، فإنه يجد نفسه مجبراً على مخالفة الموقف أو السلوك الذي تتبناه تلك المؤسسات.

وبناءً على ذلك فإن المتعاطي الذي يمارس التعاطي عدة مرات مع جماعة متعاطين، سيجد نفسه مضطراً لمسايرتهم في تعاطيهم، وهو تعاطي قد يأخذ شكل العادة، ويقوى بمرور الوقت، وتصبح بالفعل جماعته هذه أداه تحثه على التعاطي حتى يصبح بمثابة العادة له. ولا شك أن الحدث لا يرتبط بحدث آخر إلا إذا كانت تجمعهما ميول إجرامية، ولديهم تطابق في العادات والصفات التي تقود إلى السلوك الانحرافي. وقد أوضحت نتائج دراسات "شو" و "مكاي" " أن الجنوح يتركز في منطقة معينة من المدينة، وأن حوالي 90% من الجانحين ارتكبوا جرائمهم بالاشتراك مع جانحين آخرين، كما بينت هذه الدراسات أيضاً أن ارتباط هؤلاء الجانحين بمجرمين آخرين وارتباطهم بالمصادر الأخرى التي تشجع اتجاهاتهم إزاء السلوك الإجرامي –يتزايد بكثرة تورطهم في الجريمة.

عندما يرتبط الفرد بمتعاطي المخدرات ويذوق طعم التعاطي، ويتعلم فنون التعاطي، فسيمارس دائماً سلوك المتعاطين، بل وسوف يظل ممارساً للتعاطي حتى يضمن استمرار عضويته في الجماعة المتعاطية. فالعضوية في جماعة التعاطي تفرض على المرء معرفة دوره، والإسهام في تحقيق أهدافه الشخصية وأهدافه أقرانه، كما يتعين عليه الدفاع عن جماعته ضد الجماعات الأخرى. وكلما نجح الفرد في الدفاع عن جماعته، نال استحسان قائدها ورفاقه وتمكن من إشباع حاجته للتعاطي. ويتعلم الفرد التعاطي ويحظى به عندما يُثاب على دوره في جماعته. فقائد الجماعة مثلاً مطالب بتوفير مادة التعاطي ومكان التعاطي

وحماية رفاقه المتعاطين من المجتمع أو الأجهزة الضـــابطة. وتحرص الجماعة على توفير طقوس التعاطي وهي طقوس لا يمكن توافرها بأمان خارج جماعة المتعاطين. لا شـــك أن الفرد قد يتعاطى بمفرده مادة المخدر، لكنه قد لا يستمتع بذلك وقد يفشل في الحصول على مادة المخدر. كما أن الجلسة الجماعية تفسح له فرص الحديث والضحك والتعبير عن همومه وما إلى ذلك. وباختصار فإن الفرد الذي يرتبط بجماعة ما، لابد وأن يسلك سلوكها. وهناك أدلة كثيرة على أن معظم جلسات التعاطي تتم في جماعات.

لكل هدف غاية، وغاية تعلم فنون تعاطي المخدرات هي ممارســة التعاطي بطريقة مثيرة وســارة، ذلك لأن الفرد وهو يجرب التعاطي وتقنياته لابد وأن تحدث عليه بعض التغيرات النفســية والاجتماعية والفسيولوجية، وقد يشعر بمتعة هذه التغيرات، ولذلك تراه ينزع باستمرار إلى تكرارها. وتعلم التعاطي بطريقة صحيحة وتحقق المتعة بشكل سريع، يحبب الفرد في التعاطي، ويجعل جلسة التعاطي جزءًا من سلوكه العادي، بل وقد تتفاقم آثار التعاطي لدرجة أن يصــبح الفرد مدمناً على ممارســة التعاطي في اليوم الواحد لعدة مرات، وقد يضاعف الجرعة لاعتياد الجسم على الجرعات الصغيرة التي لم تعد كافية لمنحه الإحساس بالنشوة. ثم إن هذه الجرعة الكبيرة مطلوبة لأن تكون أكبر في المستقبل وهكذا... وعندما يصل الفرد إلى مرحلة الإدمان الشــديد، فإنه يضــطر إلى تناول مخدرات غالية الثمن وذلك لشــدة تأثيرها على العقل، وقد يضطر لأخذها مباشرة عن طريق الوريد، ولا شك أن أساليب التعاطي المتنوعة وما ينجم عنها من متعة ولو كانت زائفة، سيجعل الفرد يمعن في تعاطيه. قد يتورط الفرد في استعمال المخدرات كوسيلة لكسب المال إما على المستوى الشخصي أو على مستوى جماعته، ذلك لأن مثل هذا الفرد مضطر للإذعان لمطالب جماعته لكي يسلك مسلكها، وقد يكون هذا المسلك هو التعاطي أو الاتجار.

لا يكفي أن يختلط الفرد بالمتعاطين حتى يصــبح متعاطيا؛ إذ عليه أن يلم أو يفهم تقنيات التعاطي. ذلك لأن الاتجاه نحو التعاطي والارتباط بالمتعاطين لا يكفيان وحدهما ما لم يجرب الفرد بنفســه خبرة التعاطي. حيث يتعلم تقنيات جلسة التعاطي وأنواع المخدرات ودرجة جودتها، وأسمائها، وأسعارها وطريقة تعاطيها، ووقت تعاطيها، ومزايا وعيوب كل نوع، وأشــكالها وما إلى ذلك. وبكلام آخر فإن "اكتســاب الشخص للعوامل الإجرامية واستعداده الذي يتكون من مجموعة العوامل البيئية المحيطة به، هو الذي يدفع به إلى ارتكاب الجريمة. فإذا لم يكن لدى الفرد التأهيل الإجرامي، فســيســتحيل عليه إتيان التصــرف الإجرامي. ويعبر "سذرلاند" عن فكرته هذه بقوله: إن الفرد الذي لم ينجرف بعد إلى الجريمة، يستحيل عليه أن يخلق سلوكاً إجرامياً شأنه في ذلك شأن الفرد الذي لا يستطيع اختراع آلة لأنه لا يعرف شيئاً عن الميكانيكا. ولهذا فإن التأهيل الإجرامي يتأتى من الاختلاط بالأشــخاص الذين ســبق لهم ارتكاب جرائم. فحيث تتغلب العوامل الدافعة على الجريمة، والتي يكتســبها الفرد من الاختلاط بجماعات المجرمين على العوامل المانعة، فإن الفرد لا بد أن يقع في الجريمة"، (سلامة، 1979: 133).

وبتكرار مثل هذه المواقف تتكون لدى الفرد خبرة بالتعاطي ويعتاد عليها نفسياً وبيولوجياً، ويصبح مدمناً. وبناءً على ما سبق يمكننا أن نفترض الآتي:

1) إن الأفراد الذين يرتبطون بشكل أكبر بمستعملي المخدرات أكثر استعمالاً للمخدرات من أولئك الأفراد الذين لا يرتبطون بشكل أكبر بمتعاطيها.

الاختلاط التفاضلي والتجاوز عن تعاطي المخدرات:

يعني مفهوم التجاوز عن استعمال المخدرات، ذلك التسامح تجاه التعاطي، أو تقبل سلوك التعاطي، أو تقبل سلوكيات الآخرين الذين يدعمون التعاطي أو يمارسونه. المتجاوز عن التعاطي أو عن استعمال المخدر هو الذي ينظر إلى التعاطي على أنه سلوك عادي ولا ضير فيه، ولذا فلا مانع من ممارسته، أو حتى تيسير سبل الحصول على مادته بطريقة ما. وبكلام آخر يعني التجاوز عن استعمال المخدرات، كل سلوك يقبل به الفرد ويضيفه إلى ذخيرته السلوكية.

لا شك أن تعاطي المخدرات محظور بالقانون نظراً للمخاطر المترتبة عليه في كثير من المجتمعات، مثل ضرورة توفير المادة المخدرة، وتأكد تورط المتعاطين في جرائم أخلاقية وجنائية وهم تحت تأثير التعاطي، كالقتل لأجل توفير المال اللازم للتعاطي، أو الاغتصاب لأجل إشباع الدافع الجنسي وما إلى ذلك. ولذلك فإن المتعاطي أو الذي لديه ميل للتعاطي لا يرتبط إلا بمن هم على شاكلته، حيث يشاركونه ميوله واهتماماته. ولا يحقق هذا المطلب إلا مبدأ الارتباط أو الاختلاط التفاضلي الذي يعني أن الفرد انتقائي في ارتباطه بالآخرين الذي يشكل ارتباطه بهم العتبة الفارقة في فعله لشيء ما أو امتناعه عنه. وبموجب مبدأ الارتباط التفاضلي، فإن الفرد يهجر كل من لا يحقق له هدفه أو يشاركه إشباع حاجاته، ويرتبط بمن يحقق أهدافه ويشاركه اهتماماته. وبكلام آخر يجعل الارتباط التفاضلي من يميزه في بؤرة اهتمامه، ويجعل المجتمع أو الآخرين في لا شعوره.

يرتكز مبدأ المخالطة الفارقة مثلما هو مقدم في فروض نظرية "سذرلاند" على أن الفرد يتعلم الانحراف عند ارتباطه بمنحرفين، ويتعلم منهم تقديم مبررات انحرافه، ويتصل بهم بوسائل اتصال فعالة ومتكررة، ومباشرة كالاتصال المباشر وجهاً لوجه، وفي فترة عمرية يسهل فيها الاستجابة لندائهم أو تأثيرهم، ويساعدونه على تعلم مهارات الانحراف بطرق التعلم المألوفة.

عندما يرتبط الفرد بمتعاطي المخدرات، فإنه يفكر كثيرا قبل ارتباطه. حيث إنه يوازن بين المتعة التي سيحصل عليها من ارتباطه بمتعاطين وبين سلبيات هذا الارتباط. وعندما ترجح كفة الميل للمتعة، فإن الفرد يرتبط تفاضلياً بمتعاطي المخدرات. ومهما كان الميل للمتعة، فإن الفرد يرتبط تفاضلياً بمتعاطي المخدرات ومهما كانت النتائج السلبية المصاحبة لهذا الارتباط. وعندما يستدمج الفرد في داخله مزايا

التعاطي، ويبجل المتعاطين، فإنه يصـــبح مدافعاً عن التعاطي وعن المتعاطين، ويقدم مبررات قوية تبيح التعاطي، ويكتسب الاتجاهات القوية تجاه التعاطي، وتقل إدانته للتعاطي.

ومن بين المبررات التي قد يقدمها: أن التعاطي يمكن الفرد من نســيان همومه، ويمكنه من الحصــول على نشــوة أو ســعادة ولو كانت قصــيرة أو زائفة، وأن تعاطيه لا يضــر بأحد، وأن معظم الناس يتعاطون المخدرات، وأنه ما دامت هناك مخدرات فيجب تعاطيها، وما إلى ذلك. ولا شـــك أن جلســـة التعاطي وما تحويه من طقوس تضفي على المتعاطين في نظرهم ــ نوعاً من السعادة والمرح ونسيان الواقع المؤلم. ثم إن المتعاطين عادة ما يشتركون في سمات معينة، ويعانون من الفشل والإحباط في بلوغ الأهداف الاجتماعية، وينتمون لنفس الطبقة. ولذلك فإن ســماتهم المشــتركة وظروفهم الواحدة عوامل تســهل تواصــلهم، وتجعلهم يعيشون نفس ظروف التعاطي، وهو ما يقوي وحدتهم وارتباطهم.

وهكذا يتضـــح أن المتعاطي يبيع نعمة العقل بذهابه عبر تعاطي المخدرات، وكأن العقل اليقظ يجعل صاحبه يعاني أشد ألوان العذاب. يبدو أن بعض المتعاطين يعتقدون أن ميزة العقل تتسبب في شعور المرء بالألم، ولذ فإنه لا يمكن التحرر من نعمة العقل وميزته إلا بالتعاطي الذي يذهب بالعقل والتعقل، ويطلق ســراح الخيال، ويجعل المتعاطي أقل شــعوراً بتعاســته وواقعه المؤلم، وأكثر ســعادة، وهي ســعادة زائفة في الواقع لا تلبث أن تزول بعد زوال أثر التعاطي؛ حيث يرجع المتعاطي لواقعه المرير وهو أكثر حزناً واكتئاباً، وأكثر تعطشـــاً للتعاطي من جديد. وبتكرار هذه المواقف يصـــبح المتعاطي مقتنعاً بأنه لا حل لهمومه المتفاقمة إلا بالتعاطي من جديد، بل وقد يصــبح مدافعاً قوياً بضــرورة التعاطي ويحرص على نشــر ثقافة التعاطي، وبناءً على ذلك يمكننا أن نفترض الآتي:

2) إن الأفراد الذين يرتبطون بشـــكل أكبر بمتعاطي المخدرات أكثر تجاوزاً عن تعاطي المخدرات من أولئك الأفراد الذين لا يرتبطون بشكل أكبر بمتعاطيها.

الارتباط التفاضلي والانسحاب الاجتماعي:

من مؤشرات الانسحاب الاجتماعي تجنب الفرد لأي تفاعل اجتماعي، وإخفاقه في المشاركة في المواقف الاجتماعية بشكل مناسب، وافتقاره إلى أساليب التواصل الاجتماعي وعدم إقامة علاقات اجتماعية دافئة أو بناء صداقة مع أقرانه، وكراهية الاتصال بالآخرين وانعزاله عن الناس والبيئة المحيطة به، وعدم اكتراثه بما يحدث في بيئته الاجتماعية المحيطة، وقد يبدأ هذا الانسحاب في سن مبكرة، وقد يستمر لفترة طويلة، أو ربما طوال الحياة. والمنسحب اجتماعياً عادة ما يؤثر حياة العزلة والتقوقع حول الذات، ويصبح صاحبه بعيداً من الناحية الجسمية والانفعالية عن الأشخاص والمواقف الاجتماعية.

والانسحاب الاجتماعي كل فعل يبعد الفرد عن الارتباط بجماعاته الأولية أو الثانوية مثل جماعة الأسرة أو المدرسة، أو غيرها من المؤسسات الاجتماعية الأخرى كالجماعات الدينية والترفيهية ونحوها. ويأخذ الانسحاب الاجتماعي شكل العزلة والابتعاد عن الآخرين، والميل للوحدة، وعدم المشاركة في الأنشطة الاجتماعية، وعدم المشاركة الوجدانية للآخرين في أفراحهم وأحزانهم. وينسحب الفرد عادة من مجتمعه عندما لا تشكل له ثقافة مجتمعه أي معني، أو عندما يود ممارسة سلوكيات تخالف نصوص ثقافة مجتمعه. فانعزال الفرد عن مجتمعه، خطوة أولى وضرورية على طريق انحرافه أو عدم امتثاله.

ولما كان تعاطي المخدرات محظوراً بالقانون، فإن تعاطيها عادةً ما يتم بسرية كاملة، ويشترط في عضو جماعة التعاطي أن يحافظ على سرية المعلومات والسلوكيات المتعلقة بجماعته. ونظراً لأن من يتعاطى المخدرات ينتظر مصيراً مشتركاً مع أقرانه أو أفراد جماعته، فإنه يحرص كثيراً على سرية ما يقوم به هو وأقرانه. ذلك لأن في حمايته لجماعته حماية لنفسه. ونظراً لأن تعاطي المخدرات –وتحت أي مبرر– مرفوض اجتماعياً وقانونياً، ونظراً لأن مباهج التعاطي ـــ وهي مباهج زائفة ـــ لا يمكن أن تتم على مسمع ومرأى من الناس، فإن الفرد مضطر لتعاطي المخدر تحت ظروف وضوابط خاصة، وأهم هذه الضوابط هو تعاطيها في أماكن معينة لا يدركها الناس العاديون أو من بيدهم مكافحة التعاطي.

ونظراً لما يشعر به المتعاطي من متعة ولو كانت زائفة بسبب مادة التعاطي، ونظراً لارتباط هذه المتعة بأماكن معينة، وبأناس معينين، فإن متعاطي المخدرات يحرص فقط على الارتباط بتلك الأماكن وبأولئك الأشخاص الذين اعتاد التعاطي معهم. ذلك لأن الارتباط بتلك الأماكن أو الأشخاص يمثل المصدر الوحيد لمتعة ممارسة المخدر.

فالاستمتاع بالمخدر لا يمكن إدراكه إلا في وسط مألوف وحميم ويتقاسم أفراده أهدافاً ورغبات مشتركة. وبتكرار حصول الفرد فقط على المتعة من تعاطي المخدر في وسط خاص، يبدأ رحلة انعزاله عن مجتمعه؛ حيث ينسحب من الحياة الاجتماعية رويداً رويداً، ويرتبط فقط بأولئك الأفراد الذين يحققون متعته. والشيء نفسه يُقال عن ارتباطه بأماكن معينة، بل وقد يصل تعلقه بصحبته إلى نبذ كل ما هو اجتماعي، ونبذ الارتباط بأفراد المجتمع العاديين الذين في رأيه يشكلون مصدراً يزعجه ويحول دون بلوغ نشوته من خلال التعاطي. على هذا النحو ووفقاً لهذه القناعات يمعن المتعاطي في عزلته وانسحابه الاجتماعي، ويصبح هامشياً يعيش على هامش الحياة الاجتماعية، أي يصبح مغترباً عن مجتمعه لا يكن له أي ولاء، ولا يحرص على دعم أية قيمة أو سلوك سوي فيه.

أضف إلى ذلك أن الفرد الذي يتحلل من مجتمعه لن يرى أي عيب في ممارسة أي سلوك يجلب له المال لشراء المخدرات ولو كان هذا السلوك مخلاً بالأخلاق وفضائل المجتمع كالسرقة، والنصب،

والاحتيال، والقتل والعدوان، والاتجار في الشرف وما إلى ذلك. وهكذا يتضح أن المخالطة الفاضلة المؤيدة لتعاطي المخدرات تصبح أداة لخلق العصابات الإجرامية، وتصبح وسيلة تسهم في حدوث التفكك الاجتماعي، وتخلق اغتراب بعض الأفراد عن مجتمعهم، وبناءً على ذلك يمكننا افتراض الآتي:

3) إن الأفراد الذين يرتبطون بشكل أكبر بمتعاطي المخدرات أكثر ممارسة للانسحاب الاجتماعي من أولئك الأفراد الذين لا يرتبطون بشكل أكبر بمتعاطيها.

الانسحاب الاجتماعي وتعاطي المخدرات:

يعني تعاطي المخدرات كل فعل يسلكه المتعاطي مثل شم مادة مخدرة عن طريق الأنف، أو بلعها عن طريق الفم، أو حقنها في الوريد، أو تدخينها في شكل سيجارة أو عن طريق الريجيلة. لا شك أن الإنسان كائن يحرص على تفاعله مع جماعة أو فرد ما، وأنه يفضل الارتباط بأولئك الذين يساعدونه على إشباع حاجاته المختلفة، والذين يشاركونه ميوله وأهدافه وطموحاته ومعتقداته وهوياته. ولذلك فإن المتعاطي يرتبط في العادة بأولئك الذين يستعملونها، نظراً لأن التعاطي محظور بالقانون. فمتعاطي المخدرات يحرص على الارتباط بجماعة التعاطي أو الاتجار في المخدرات فقط. ولكن وبتتالي الأيام والسنين يتعلم مثل هذا الفرد الانعزال عن مجتمعه شيئاً فشيئاً، ذلك لأن مصلحته تتعارض مع المصلحة الاجتماعية.

يشغف المتعاطي بجلسة التعاطي وطقوسها الخاصة، ولذلك ينفر من أي قيد يربطه بمجتمعه، ويرى في الارتباط بالآخرين معضلة أو مشكلة تحول دون بلوغ أهدافه، ذلك لأن الآخرين لن يمكنوه من بلوغ أهدافه أو إشباع حاجاته، مما يجعله يتضايق من وجودهم حوله. لا يستطيع متعاطي المخدرات مشاركة الآخرين أهدافهم الاجتماعية ولا يستطيع مشاركتهم أحزانهم وأفراحهم، ذلك لأنه يحرص على تحقيق أهداف خاصة به، وهي أهداف عادة ما تتعارض أو تتقاطع مع الأهداف والاجتماعية. ولا شك أن الأهداف المتعارضة تمزق تضامن الناس وتفرقهم أكثر من أن تجمعهم.

ولذا يشعر متعاطي المخدرات بقلة الارتياح في أية مناسبة تفرض عليه الارتباط بالآخرين. يشعر المتعاطي بالارتياح فقط بين أفراد ثلته الذين يسلكون نفس مسلكه ويؤمنون بنفس قناعته، وينتظرون نفس مصيره، ويحملون نفس فلسفته. على هذا النحو يصبح ارتباط المتعاطي بالآخرين مشكلة تؤرقه وتشعره بالضيق وقلة الارتياح.

للارتباط بجماعة الرفاق إيجابيات؛ "فالجماعة تمنح الشاب تعلماً نفسياً وتعلماً تقنياً يساعداه على الشهرة وربح أوفر للمال. ويقصد بالتعلم النفسي التحضير المعنوي الضروري لاقتراف فعل انحرافي. فجماعة الرفاق تساعد الشاب على التغلب على المخاوف وتفادي مشاعر الذنب الناتجة عن مخالفة القانون، كما يأخذ الشاب من جماعة رفاقه الشجاعة للمرور للفعل، وتساعد جماعة الرفاق على تبرير

السلوكات المنحرفة، كما يموه الشعور بالذنب لأن المسئولية جماعية وليست فردية. أما التعلم التقني، فيقصد به تعلم أسرار وخفايا عمل المنحرفين الآخرين الأكثر تجربة وخبرة، وبواسطة هذين النوعين من التعلم يصبح الانحراف مع الجماعة أكثر فائدة، فتزداد اللذة لأن أفراد الجماعة يتقاسمونها معه، وتعظم الشهرة لأن أفراد الجماعة يتبادلون الحديث فيما بينهم عن حسن الأداء والقوة والشجاعة التي يبديها الشاب أثناء القيام بالأفعال المنحرفة"، (بوخميس، 2010: 36).

ولكن وعندما يعتاد مستعمل المخدرات على الانعزال عن الآخرين، ويُثاب على انعزاله من خلال التمتع بمزايا التعاطي، فإن مشاعره تصبح جامدة، حيث تتكلس مشاعره وعواطفه ويتحجر فؤاده، ويموت ضميره، ويضعف أناه الأعلى، وتكون محصلة ذلك عدم إحساسه بآلام الآخرين. أضف إلى ذلك أن ثمرة إيثار العزلة تقود مستعمل المخدرات إلى ضعف علاقاته الاجتماعية. فمستعمل المخدرات لا يحرص إلا على الارتباط بجماعته، ولا يحرص إلا على تحقيق متعته، ولذلك فهو يتحلل أو يتنصل من مجتمعه، ويفك أية علاقة اجتماعية تربطه به. وبتكرار ذلك وبحصول مستعمل المخدرات على إثابة من تنصله من مجتمعه، يصبح انسلاخه من مجتمعه يأخذ شكل العادة، هذه العادة التي تضعف علاقته بالآخرين إلى أبعد الحدود.

عندما يضعف ارتباط المتعاطي بالآخرين لظروف تخصه، يقل ارتباط الآخرين به بالمحصلة، فيذوق مرارة العزلة الاجتماعية التي كان هو سببها الرئيس، فيشعر بالوحدة وبأنه وحيد حتى بين أقرب الناس إليه كأفراد أسرته. ذلك لأن أهدافه تتعارض مع أهداف أسرته، وتعارض الأهداف لابد وأن يعمق من هوة العزلة بين الأفراد. ذلك لأن المتعاطي مثلاً لا يجد الوقت لمشاركة ذويه أفراحهم وأحزانهم، ويكتشف أن أفكاره وأهدافه تختلف عن أفكارهم وأهدافهم. وبتكرار ذلك يصبح الفرد منعزلاً عن أسرته. ونظراً لاختلاف أهداف المتعاطي للمخدرات عن أهداف مجتمعه، فإنه لن يشارك في الأهداف الاجتماعية التي لم تعد تشكل له أي معنى.

ولذلك فإنه من الطبيعي أن لا يتوافق مع أفراد مجتمعه وذلك لقلة وجود تلك القواسم والأهداف المشتركة التي تربطه بهم. وتكون محصلة شعور المتعاطي بالوحدة والعزلة بين الناس بقدر ابتعاده عن مجتمعه، وبقدر ابتعاد مجتمعه عنه أيضاً. وبقدر عدم اهتمام متعاطي المخدرات بما يمارسه أفراد المجتمع من أنشطة، يقل حرصه على تقليد الآخرين في أداء مهامهم وتقليدهم حتى في طرق قضاء وقت فراغهم. لا يختلط متعاطي المخدرات بالآخرين لقضاء وقت فراغه، ويؤثر العزلة حتى في وقت فراغه، ذلك لأن الارتباط بالآخرين وأياً كان نوعه يضايقه ويزعجه. يدرك متعاطي المخدرات أنه منحرف، ومضاد للمجتمع، وأنه من ثم مرفوض اجتماعياً، ولذلك فهو يؤثر العزلة حتى لا يقرأ النبذ له في أعين الآخرين. ولذا فهذه

العزلة مفروضة عليه، ذلك لأنه لا يستطيع التعاطي أو الاتجار في المخدرات أمام أعين الناس وبرضاهم، ومن هنا فهو ملزم بالانعزال عنهم إن أراد تحقيق مآربه.

الإنسان المتعاطي للمخدرات نرجسي ولا يفكر إلا في ملذاته وفي سبل إشباعها، ولا يفكر إلا في سبل تجميع الثروة وكل ذلك من خلال قنوات غير مشروعة. ولا شك أن الإنسان النرجسي يعز عليه الاستجابة لآراء الآخرين، ويعز عليه تغيير قناعاته، وهو أناني ولا يهمه ما يحدث للآخرين من مصائب من جراء إغوائه للآخرين بالتعاطي أو بيعهم المواد المخدرة، إنه يفكر في الثروة والنشوة فقط ولا يهمه تضرر المجتمع من ذلك. ثم إن ضعف ارتباطه بالمجتمع، لا يحسسه بتأنيب الضمير ولا يحسسه بجرمه، وذلك لموت إحساسه بآلام الآخرين، ولتقوقعه فقط حول ذلك، وقد يحدث أن يشعر المتعاطي بتأنيب الضمير ويفكر بمرارة في الذنوب التي اقترفها، غير أن هذا الإحساس يعمق فيه المزيد بممارسة العزلة، وذلك لكثرة اجتراره لهمومه التي تستنزف كل طاقاته النفسية، وتجعله من ثم عاجزاً عن توفير أية طاقة لممارسة إي مشروع اجتماعي كبير، وبناءً على ما سبق يمكننا أن نفترض الآتي:

4) إن الأفراد المنسحبون اجتماعياً أكثر تعاطياً للمخدرات من أولئك الأفراد غير المنسحبين اجتماعياً.

التجاوز عن تعاطي المخدرات وتعاطي المخدرات:

يتجاوز المتعاطي عن استعمال المخدرات، عندما يقتنع بتعاطيها أو يتاجر فيها، وحتى في ظل عدم وجود ما يبرر جودتها أو مشروعيتها؛ فالمتعاطي مثلاً قد يتشرب عن قناعة ثقافة التعاطي، ويدعم اتجاهاته بعدم نبذ التعاطي وممارسته. وعندما يتجاوز الفرد عن تعاطي المخدرات، فإنه يصبح لا يمانع من تعاطيها وفق الهدف الذي ينشده إذا كانت الظروف مناسبة، وتتوافر هذه الظروف عادة بين الأصدقاء الحميمين وفي الحفلات العامة وحفلات التعارف، أو بالبيت، أو بالأماكن الآمنة الأخرى. وقد يستفحل أمر التعاطي بالفرد ويصبح مدمناً، وهنا لا يرى مانعاً من استعمال المخدر تحت أي ظرف. ويتعزز اتجاه الفرد نحو استعمال المخدر عندما يكتشف أن الكثير من الأفراد في المجتمع يتعاطون المخدرات، وأنه لا يوجد أي حرج أخلاقي في ذلك.

يتجاوز الفرد عن تعاطي المخدر عندما يقتنع بأنه لا مانع من تعاطيها إذا كانت الفائدة أو النشوة عالية، وهنا قد يغامر الفرد بحياته وبسمعته. إذ إن رغبة التعاطي في لحظة ما عادة ما تكون عارمة ومطلوبة، والمتاجر في المخدرات قد يغامر بما لديه من أجل صفقة العمر، وقد يفلح في صفقته وقد يخفق.

قد يتجاوز البعض عن استعمال المخدرات عندما يكتشفون أن الكثير من الأفراد يتعاطون المخدرات أو يستعملونها بغرض الاتجار والكسب الثروة. كما أن معرفة الفرد بأناس تحصلوا على ثروات هائلة، من خلال الاتجار في المخدرات تقوي اتجاهاته نحو تبني أسلوبهم في تجميع الثروة. يكون الفرد مبررات

التجاوز عن تعاطي المخدرات من خلال تلك القناعات التي مؤداها: أنه لا يوجد أي خطأ في تعاطي المخدرات؛ فما دامت هناك انحرافات كبيرة في المجتمع، وما دامت المخدرات موجودة، وما دامت رغبات الأفراد متنوعة، فإن الفرد من حقه تعاطي المخدرات وفق الغرض الذي يراه. يتجاوز الفرد عن تعاطي المخدرات عندما يقتنع بأن هناك ظروفاً قاهرة تدفعه لذلك، مثل الفقر، والبطالة، والشعور بالكأبة، والمستقبل المظلم، وتوافر أشكال الانحراف الأخرى في المجتمع، وانخراط أناس يحظون بمكانة اجتماعية في استعمال المواد المخدرة وما إلى ذلك.

وقد يتجاوز الفرد عن تعاطي المخدرات لإشباع حاجة ما مثل الحاجة إلى النشوة أو المال وعلى الرغم من الاقتناع بأضرارها النفسية والبيولوجية والاجتماعية على المدى البعيد. وقد يتجاوز الفرد عن تعاطي المخدرات في الخفاء فقط؛ فبعض الأفراد يحرصون على تعاطي المخدر بسرية كاملة، وذلك لشدة القيود على تعاطيها أو الاتجار، وفي بعض الأحيان قد يعاني الفرد من واقع مؤلم وفقر مدقع، فيقتنع في قرارة نفسه بأنه لا المال ولا المتعة يمكن الحصول عليهما دون استعمال المخدر. على هذا النحو يصبح الفرد مقنعاً ومغامراً بكل ما يملك من أجل تعاطي المخدرات. وبناءً على ما تقدم يمكننا أن نفترض الآتي:

5) إن الأفراد الذين يتجاوزون عن تعاطي المخدرات أكثر تعاطياً لها من أولئك الأفراد الذين لا يتجاوزون عن تعاطيها.

ويمكن تلخيص العلاقات بين المتغيرات السالفة الذكر في النموذج النظري التالي:

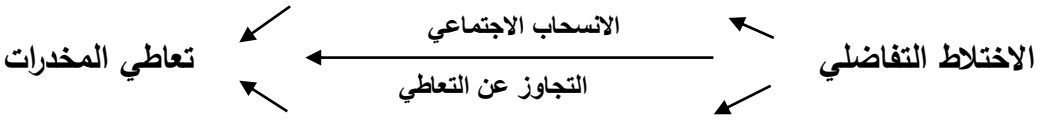

الخاتمة:

لقد تضمن النموذج النظري لهذا البحث تفسيراً لتعاطي المخدرات في ضوء نظرية المخالطة الفارقة، ذلك لأن تعاطي المخدرات سلوك يتم تعلمه عن طريق ارتباط المتعاطي بجماعة متعاطية تربطه بها علاقة أولية مباشرة، وعبر كافة أنواع الاتصال الممكنة، حيث يتعلم من خلالها تقنيات التعاطي، كما يتعلم منها تلك المواقف والاتجاهات والبواعث والتبريرات التي تدفعه باتجاه التعاطي، ويتعلم منها الاتجاهات المؤيدة للتعاطي وانتهاك القانون الذي يدينه ومن ثم ممارسته، لكن يتعلم الفرد من جماعته السوية أيضاً تلك الاتجاهات والمواقف الإيجابية التي تشجعه على احترام النظام والقانون، وبالتالي تصرفه عن ممارسة التعاطي. ويصبح الفرد متعاطياً عندما ترجح لديه كافة القوى السالبة أو المشجعة على التعاطي على تلك القوى الإيجابية أو غير المشجعة على ممارسته.

وأن المواقف والاتجاهات المعززة للتعاطي السالبة ليست قوى ديناميكية وذات تأثير واحدٍ على جميع المتعاطين وبأسلوب واحد. ذلك لأن الاتجاهات التي تشجع على التعاطي ذات تأثير نسبي، وهو ما يعني أنها تعمل تفاضلياً، أي وفقاً للعوامل التي تحيط بها ولمدى قوة هذه العوامل؛ فتأثير هذه العوامل يتوقف على عامل التكرار، ومدة التكرار، وعمق الاختلاط، وقوته أو قوة تأثيره على الأفراد الذين يتعرضون له، وأن الاختلاط التفاضلي بين الأفراد لا يتضمن انتقال الأنماط السلوكية المتعلقة بالتعاطي فقط، ولكنه يتضمن أيضاً انتقال الأنماط السلوكية التي تشجب التعاطي.

وأن تأثير الأنماط السلوكية على الأفراد يختلف بالدرجة الأولى باختلاف مدى تكرر هذه الأنماط ومدة تكرارها، ولذلك فعندما يتعرض الفرد إلى بعض المواقف والظروف بصورة متكررة، ولمدة طويلة نسبياً، فإنه يستجيب لها ويعمل على تقليدها، وأن تأثر الفرد بالأنماط السلوكية يختلف باختلاف أولويتها في حياته؛ فالسلوك الذي يتعلمه الطفل في مرحلة مبكرة من حياته يظل راسخاً، حيث تستقر آثاره طيلة حياته المستقبلية، وأن سلوك التعاطي يعبر عن احتياجات الفرد وعن قيمه، إلا أن تفسير هذا النوع من السلوك بالذات لا يتم بناء على الاحتياجات والقيم. ذلك لأن السلوك السوي الذي يدين التعاطي يعبر هو الآخر عن نفس الاحتياجات والقيم.

لقد كشف التصور النظري الذي تضمن تفسيراً لظاهرة تعاطي المخدرات في ضوء نظرية الاختلاط التفاضلي عن أن التعاطي يتم تعلمه عن طريق ارتباط المتعاطي بجماعة أولية تربطه به علاقة مباشرة وتتضمن كافة وسائل التفاعل أو الاتصال، وأن التعاطي يتم بطريقة سرية، ما يجعل المتعاطي منسحباً من مجتمعه، ومفضلاً حياة العزلة، ولا يرتبط بقوة إلا بجماعته المتعاطية التي تبرر له تعاطيه، وتزوده بكافة تقنيات التعاطي، وتمثل له الإطار المرجعي الذي يسند انخراطه في التعاطي. ويبتعد المتعاطي عن الجماعات السوية بقدر تأثره السلبي بجماعته التي تكون اتجاهاته نحو التعاطي، وتبعده عن تشرب الاتجاهات الإيجابية التي تدينه، فيتعلم التبريرات التي يبرر بها تعاطيه ويتجاوز عنه، ويصبح متسامحاً مع مسلكه الخاطئ ولا يرى غضاضة في ارتكابه. وعلى هذا النحو يصبح الفرد متعاطياً لارتباطه بجماعة تزين له التعاطي، ومبتعداً في نفس الوقت على الجماعات التي تدين التعاطي وتحترم القوانين التي تعاقب على ممارسته.

التوصيات:

في ضوء التصور النظري السابق، نقترح الآتي:

1) ضرورة مراقبة الأسرة لسلوكيات أولادها، ومعرفة نوعية أصدقائهم، حتى لا يرتبطون بأصدقاء منحرفين يزينون لهم دروب الانحراف مثل تعاطي المخدرات.

2) أن تقدم الأسرة لأولادها النماذج السلوكية السوية والقدوة الحسنة التي تشجب الانحراف بكافة أنواعه، وتعزز السلوكيات المدعمة للقانون وممارسة السلوك المقرر اجتماعياً.

3) أن تطبق المدرسة العقوبات الصارمة على التلاميذ الذين يرتبطون بجماعات مدرسية تثير الشغب والعنف وتنتهك اللوائح المنظمة للعمل المدرسي، وتعطي محاضرات توعوية حول علاقة الانحراف بكافة أنواعه بثلة الفرد المنحرفة.

4) أن يشجع الابناء منذ الصغر على تعلم فنيات التفاعل الاجتماعي وطرق الانخراط في الحياة الاجتماعية، حتى لا يشبوا على الشعور بالاغتراب ويرتبطون بالجماعات السوية التي تحترم القانون، ومن يبتعدون عن الارتباط بالجماعات المحرفة المغتربة عن مجتمعها.

المقترحات:

بناءً على هذا التصور النظري الذي يفسر تعاطي المخدرات في ضوء نظرية المخالطة الفارقة، فإنه يمكن القيام بالتفسيرات النظرية التالية:

1) تفسير ظاهرة الغش في الامتحانات في ضوء نظرية المخالطة الفارقة.

2) تفسير ظاهرة التنمر المدرسي في ضوء نظرية المخالطة الفارقة.

3) تفسير ظاهرة الهروب من المدرسة في ضوء نظرية المخالطة الفارقة.

4) تفسير ظاهرة الاغتراب في ضوء نظرية المخالطة الفارقة.

5) تفسير ظاهرة العنف المجتمعي في ضوء نظرية المخالطة الفارقة.

قائمة المراجع المستخدمة:

1. أبوتوتة، عبد الرحمن محمد (2002). أصول علم الإجرام. – فاليتا: منشورات إلقا.
2. أبولغد، ابراهيم، ومليكة، لويس (1995). البحث الاجتماعي: مفاهيمه وأدواته. – سرس الليان: مركز التربية الأساسية في العالم العربي.
3. آل سعود، عبد الرحمن بن سعد بن عبد الرحمن (1998). الإجرام: دراسة تطبيقية تقويمية. – الرياض: مكتبة العبيكان.
4. بن عودة، محمد (2017). مطبوعة مقياس النظريات المعاصرة للجريمة والانحراف، جامعة الجيلاني بونعامة خميس مليانة: كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية/قسم العلوم الاجتماعية.
5. بوخميس، بوفولة (2010). "التطرف والانحراف: مقاربة نفسية اجتماعية، عوامل الفعل الانحرافي ذي الدافع الإسلامي في الجزائر". – مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، ع(25–26)، فصلي الشتاء والربيع.
6. التير، مصطفى عمر (2013). الغاية تبرر الوسيلة: دراسة اجتماعية لظاهرة الغش في الامتحانات. – طرابلس: دار مداد للطباعة والنشر والتوزيع والإنتاج الفني.
7. الثالث، ويليام وماك شين (1996). السلوك الإجرامي–النظريات، ترجمة وتعليق: عدلي السمرى. – الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
8. الحويج، عبد الهادي إبراهيم (2007). المخدرات: الدوافع والعلاج. – دمشق: دار هادي للطباعة والنشر والتوزيع.
9. الخطيب، سهير حسين، المجالي، فايز عبد القادر (2022). "مؤشرات نظرية الاختلاط التفاضلي وعلاقتها في انحراف الاحداث من وجهة نظر المنتفعين في دور الإيواء". – المجلة العربية للنشر العلمي، ع(43).
10. سلامة، مأمون محمد (1997). أصول علم الإجرام والعقاب. – القاهرة: دار الفكر العربي.
11. السمري، عدلي محمود (1995). مفهوم المخدرات بين تلاميذ الحلقة الثانية من التعليم الأساسي. – الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
12. السمري، عدلي محمود في عبد الحميد، آمال، وآخرون (2000). الانحراف والضبط الاجتماعي. – الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2000.
13. عبد الرحمن، عبد الله محمد (2006). النظرية في علم الاجتماع: النظرية الكلاسيكية. – الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
14. عبد الرحمن، عبد الله محمد والبدوي، محمد على (2005). مناهج وطرق البحث الاجتماعي. – الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

15. العزابي، إلهام عمران عريبي (2012). الأبعاد الاجتماعية المرتبطة بتعاطي المخدرات: دراسة ميدانية بمؤسسات علاج وتأهيل المدمنين. – طرابلس: دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع.
16. عطوش، نجاح رجب (2007). تعاطي المخدرات وعلاقته بالاغتراب لدى نزلاء بمؤسسة الإصلاح والتأهيل بمدينة طرابلس – دراسة ميدانية، (رسالة ماجستير غير منشورة) طرابلس: أكاديمية الدراسات العليا.
17. عطوش، نجاح رجب (2007). تعاطي المخدرات وعلاقته بالاغتراب لدى نزلاء بمؤسسة الإصلاح والتأهيل بمدينة طرابلس: دراسة إمبيريقية، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جنزور: أكاديمية الدراسات العليا.
18. علي، على عبد السلام (2000). أصول علم النفس الجنائي وتطبيقاته العملية. – القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
19. فايد، حسين (2006). سيكولوجية الإدمان. – د–م: مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع.
20. كاره، مصطفي عبد المجيد (1985). مقدمة في الانحراف الاجتماعي، الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية. – بيروت: معهد الإنماء العربي.
21. كوهين، لويس ومانيون، لورانس (1990). مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية، ترجمة: كوثر حسين كوجك، وليم تاوضروس عبيد. – القاهرة: الدار العربية للنشر والتوزيع.
22. لطفي، طلعت إبراهيم (2008). دراسات في علم الاجتماع الجنائي. – القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
23. هيرشي، ترافيس (1989). أسباب جنوح الأحداث، ترجمة وتعليق: محمد سلامة محمد غباري. – ط 2. – الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.